

غياب الماضي: تدمير التراث الحضاري و محو التاريخ في الوقت الحاضر

في بابل القديمة عاش ذات مرة شخص يدعى نابو- زير-ايشير، كان باحثاً مختصاً في اللغات و الكتابات القديمة. كما أنه أدار تنقيبات و سجلّ البقايا العمارية و الملتقطات التي تم الكشف عنها تحت اشرافه. عاش نابو- زير- ايشير في القرن السادس قبل الميلاد، في فترة حكم الملك البابلي نابونيد، و لكننا نعلم بأنه أكتشف بقايا أثرية عائدة الى منتصف الألف الثاني ق.م. من عصر الملك الكاشي كوريكالزو الأول الذي عاش 800 سنة قبل نابو-زير-ايشير. وقد أدرك الأخير ماهية الآثار التي أكتشفها و قام بتدوينها بدقة. إذ ان بعض الآثار المكتشفة تحمل بدورها سجلاً عن النشاطات الأثرية الكاشية و أهتمامهم بالماضي. من بين الملتقطات التي كشف عنها باحثنا البابلي كان نص مسماري يذكر كيف ان الملك الكاشي حافظ و رمم جدار معبد أيم -كلام- ما في مدينة أكد كجزء من تحضيراته لاحتفالات راس السنة أكيو في بداية فصل الربيع.

كان نابو-زير-ايشير باحثاً و أثارياً لا يختلف عنا ، نحن المجتمعين هنا في هذا المؤتمر. حيث درس بقايا الماضي من خلال الملتقطات الأثرية و العمارة، كما انه عرف اللغات و الخطوط القديمة التي قرائها و ترجمها و سجلها بدقة كبيرة. من بين النصوص التي أعادة أنتاجها (قام بعمل نسخة من النص بضغطة على الطين) كان نص أقدم من ذلك العائد الى عصر الملك كوريكالزو الذي ذكرته أعلاه. كان هذا النص القديم من عصر الملك الأكدي شاركاليشاري الذي حكم ما بين 2217- 2193 ق.م. على ظهر النسخة سجل نابو- زير-ايشير الموقع الذي وجد فيه هذا النص القديم (الذي كان عمره مايقارب 2000 سنة عندما عثر عليه باحثنا البابلي) و المادة التي كُتب عليها. أن قصة نابو- زير-ايشير ليست الوحيدة التي وصلتنا من بلاد وادي الرافدين، في الحقيقة هناك العديد من السجلات التي وصلتنا من الزمن البعيد و التي تعكس الوعي التاريخي في بلاد وادي الرافدين. إذ كان سكان الرافدين واعيين جداً بتاريخ ارضهم الحافل، حيث عرفوا أقدمية تاريخهم و تباهاوا بهذه الحقيقة و شعروا بمسؤولية مقدسة للحفاظ عليه كونه ماضي اجدادهم.

اليوم نحن نردد هذه الأهتمامات، وهكذا أريد ان أفتح هذا الأجمع بذكر ما هو واضح: الحفاظ على الماضي هو أمر مهم جداً لشعوب هذا الجزء من العالم، و ليس فقط تمضية وقت للمتفرجين من شعوب الدول الغربية، هذا هو أحد أسباب تسمية هذا المؤتمر "مستقبل الماضي". خلافاً للعديد من مؤتمراتهم عن التراث الحضاري في الشرق الأوسط، معظم المحاضرين و أعضاء اللجان الذين سنستمع الى آرائهم خلال اليومين القادمين هم من هذه المنطقة نفسها. عُقد هذا المؤتمر بالتركيز على العراق و سوريا، كلا المنطقتين تحت خطر حقيقي. معاً مع المشاركات في التنظيم الدكتورة جون أروز و الدكتورة شيلا كامبي من متحف أمتروبوليتان للفنون، و الأستاذ كرسوفير روفيلد من جامعة كوج، دعونا لهذا الأجمع حتى يسر للباحثين و الأثاريين المحليين ابداء آرائهم و ليكون صوتهم مسموعاً و بوضوح. أنه من المهم التأكيد على ان ماضي هذه المنطقة هو جزء من التراث الحضاري العالمي الذي يهم الجميع، ولكن بالنسبة لنا المنتمين الى هذه المنطقة، أنه ايضاً تراثنا المحلي و جزء مهم من مميزات أراضينا.

دعوني أعود الى سكان بلاد وادي الرافدين، فهم عرفوا الملتقطات الأثرية كبقايا الماضي، ولكن عندما وضعوا القطع الأثرية في باطن الأرض أو شيّدوا النصب و المباني فإن الشيء المهم الذي يجب ان نفهمه هو: أنهم رأوا هذه ألقى و المباني ليس فقط كإمتداد من ماضي اجدادهم بل ايضاً كوسيلة تواصل مع المستقبل، كوجود لا منتهي أبدي من خلال النصب و الصور، و ايضاً من خلال النصوص التاريخية المكتوبة. كانت أفاقهم الزمنية واسعة و بعيدة متقدمة للإمام نحو المستقبل. ولكن لماذا كان

هذا الحال؟ كان ذلك بسبب وضوح آثار ألاماضي و التي ايضاً شهدت على تاريخ الأرض، أذ رأوا ألمستقبل من خلال عدسة بقايا ألاماضي.

أن هدف أجمعنا هذا هو ألمحافظة و حماية تراثنا ألعضاري، و خاصة الأثر ألتقافي العراقي و السوري. هذه المنطقة التي نسميها أرض النهرين: بلاد وادي أرافدين. مهم جداً لمؤتمرنا و للاهتماماتنا الحالية حقيقة كون أول أدلة تاريخية ألعفاظ و ترميم الأثار تأتي من هذا ألعجز من ألعالم. نحن دائماً نذكر بأن الكتابة أختُرت هنا، كما ألعدن و القوانين و لكن يجب أن نضيف ايضاً بداية الحضارة، و بداية الأثار و ترميمها. أذ ان أول أعمال الأثار و الترميم الظاهرة بوضوح بدأت في بلاد وادي أرافدين. أناء أوركاء، الذي أصبح رمزاً لتهب و تدمير ألتحف ألعراقي في سنة 2003، يعود تاريخه الى 3300 ق.م. عندما وضع الأبناء في باطن الأرض في أألف أرابع ق.م. كان قد تم بالفعل أصلاحه بدقة بواسطة مسمار معدني ألعسق قطعة كانت قد أتكسرت عن قمة الأبناء. هذا هو عمل ترميم فعلي.

يَدعي ألبعض بأن الأهتمام ألاماضي هو مفهوم حديث-غربي مستورد الى الشرق، ولكن هذا ليس صحيحاً. هذه حقيقة أنا أتبثها بتفاصيل متناهية في العديد من كتاباتي و بحوثي. هذه الأدعاءات تخرج من أؤلئك الذين يحاولون أقتناعنا بأننا، في أراضينا، لم نفهم ألاماضي الى أن علمنا أياه الأوربيين. هذه المزاعم الخاطئة هي أأن مستخدمة ايضاً من قبل البعض في هذه ألعنطقة من أجل مصالحهم ألعخاصة. أذ أصبح ألبعض يرى وجوب رفض ألاماضي و بأن ألعفاظ عليه هو مفهوم غربي دخيل. في محاضرة ألقيتها منذ مدة قصيرة كان هناك من بين ألعاضرين بعض ألعخصين ألعصر الحديث و الذين واجهوني حول هذه النقطة و أخبروني بأنني لا أستطيع ألتكلم عن ألعفاظ لانه مفهوم غربي حديث. ولكن هذا أزعم هو ألباطع خاطئ و غير قائم على اي بحث في النصوص و الممارسات القديمة. الأرتباط ألاماضي ليس مفهوم غربي و ليس أختراع معاصر، فهو موجود منذ عصر تدوين ألتاريخ عندما كان ألعملوك يرممون و يجددون ألعباني ألعمارية و يحمون ألعماكن المقدسة و التاريخية و التي نسميها نحن أأن "مواقع تراث حضاري".

أن ظهور علم الأثار في اوربا في القرن ألتاسع عشر أسفرَ عن ظهور اتجاه جديد و مختلف ألتصال ألاماضي تميزَ بكونه ألتجاه علمي. هذه كانت نقطة تحول مهمة في تاريخ الأثار و علم ألتاحف، نقطة كُونت ألتاسس ألتطريقة التي نعمل بها اليوم. مع هذا فإن هذه المرحلة لم تكن ألعظة التاريخية الأولى التي حصل فيها أهتمام باطلال هذا ألعجز من ألعالم. ففي ألعدنونات العربية و الفارسية ألعلامية المبكرة نجد كُتاب مثل أبن حوقل (عاش بين 943-969 م) الذي قام بزيارة مدينة بابل و كتب عنها في القرن ألعاشر الميلادي. كما أشار بنيامين من مدينة توديبلا (وهو ألعاخام من أسبانيا) الى أطلال قصر نبوخذنصر في بابل التي قام بزيارتها. بألاضافة فإن كلاً من أبن جُببير (1145-1217 م) ، أبو ألعدي (1273-1331 م)، مسعودي (ألتوفى في 957م)، مقدسي (945-1000م) و غيرهم من ألعباحثين وصفوا ألتحديد مواقع مينة نينوى و بابل. و في ألعطرة ألعثمانية قام ميميت زيلي، ألعروف ب أوليا ألعلي، بوصف ألعباني القديمة في سجل سفرياته "سياحتنامه" ألعدون في ألتنصف القرن ألسابع عشر الميلادي. أما في أيران فقد ربطت سلالة قاجار ألعظمتها ألعملوك ألعدماء، و قامت بأستعارة ألعقونات و رموز من ألعنحوتات القديمة.

هذه المواقع و ألعنصب و ألعاطلال شكلت و حددت تضاريس هذه المنطقة لعدة قرون و وبدونها لا نستطيع فهم هذه المنطقة ولا ما وصلت اليه في الوقت ألعاضر. عندما نقوم بتجاهل هذه ألعاطلال فإن المنطقة تصبح شيئاً مختلفاً، تصبح مكاناً بدون ماضي ملموس، مكان مُحَي تاريخه و ألعيدَ كتابته. ولكن لماذا؟ لأن ألاماضي هو سرد قصصي، ولكن وجود ألعقاي التاريخية القديمة يجعلها جزء ملموس من هذه ألعقص التاريخية. أن ألعاطلال القائمة و أثار ألاماضي هي جزء من ألتاريخ القديم ألعراض و ألعنسان.

لأول مرة منذ آلاف السنين، الآن يتم محو هذه البقايا التاريخية بشكل ممنهج. نحن لا نرى الآن وجود قوي و ملموس للماضي، بل نواجه غياب الماضي بشكل صارخ وواضح. تعاريف و قصصٌ جديدة يتم نشرها لنتناسب مع الأهداف الحالية للغزو و الإبادة الجماعية. يتم الآن مسح هذه الأرض العتيقة و تحويلها الى ما يمكن وصفه بـ terra nulla أو الأرض الفارغة، خالية من الناس و التاريخ و جاهزة للاستعمار و الاحتلال و كأنها أرض متوفرة لكل من يرغب الحصول عليها. أن تحقيق هذه الأهداف و استراتيجيات العنف قائمة على غياب الماضي. لذلك أود أن أؤكد هنا بأن محو الأدلة من الماضي و التاريخ ليست مجرد أضرار جانبية للحرب، بل أن تدميرها هو جزء من خطة إعادة تشكيل و استيلاء على الأراضي في المنطقة.

الآن هناك تهديدا لوجود منطقة الشرق الأوسط من خلال محو ثقافتها و شعوبها و فصلها عن ماضيها البعيد و القريب. ليس فقط في العراق و سوريا، بل أيضاً في جنوب شرق الأناضول - المناطق التي سوف نناقشها في اجتماعنا- و اليمن و تونس و ليبيا و مصر و لبنان و فلسطين و في كل مكان تراثنا، جذورنا التاريخية التعددية و الثقافات الغنية، تحت التهديد و الخطر. ان ماضي الشرق الأوسط ليس بشيء متجانس بسيط، بل ان جمال هذا الماضي يكمن في تنوعه. الحفاظ على التراث الثقافي ليس ترفاً ولكنه ضرورة! الأثار و بقايا المباني التاريخية ظلت قائمة لألف السنين حيث تعيش الناس معها بسلام بل و حتى اعتبروها جزء من هوية الأرض الطبيعية. الآن هذه الأرض و هويتها مهددة بالمحو.

ما يثير القلق هو ليس فقط التدمير المتعمد للمباني التاريخية أو الصور و التماثيل، ولكن المحو التام لكل ما لا يتلأم مع السرد الجديد للنفاء العرقي أو الديني. لهذا نجد المواقع القديمة و المباني التراثية الإسلامية و المباني المدنية العائدة الى القرن العشرين الميلادي جميعها تُهدم لنفس السبب. هذا التدمير له أسباب عدة، فقد شاهدنا التدمير الشامل للمواقع من خلال الارهاب و الحروب، سواءً من قبل الحكومات و الجيوش أو من قبل عصابات الارهاب ولكن هذا ليس كل شيء. إذ بدأت المنهجيات الحصرية بالترسخ في المجتمعات المحلية، كما و نشاهد اليوم عملية إعادة كتابة و إعادة تحديد مواقع التراث الثقافي من جميع العصور، القديمة و الحديثة، الى جانب منهاج عنصري عرقي خاطئ و غير مقبل كونه يؤدي الى محو التاريخ لخدمة اغراض معينة. بالإضافة فأنا نرى ظهور بعض المشاريع الأثرية السيئة و عمليات نهب شاملة للمواقع الأثرية و المتاحف و المكتبات لمصلحة تجارة الأثار و التراث العالمية. نحن نشهد التدمير الكامل الناتج عن مشاريع التطور المدني الغير مضبوط و الأعتباطي و التي غالباً لا تتبع القوانين من بينها تلك الخاصة بالقيام بأعمال مسح أثاري قبل البدء بالحفر او بناء منشأ جديد. المسؤولية هنا لا تقع فقط على الحكومات المحلية و المواطنين بل أيضاً على الشركات و المؤسسات الدولية منها الاوربية و الأمريكية التي تُنجز العمل. جميع انواع التدمير هذه سوف يتم مناقشتها في الايام القليلة القادمة.

المشكلة الأخرى التي ظهرت، و التي كانت واضحة منذ سنة ٢٠٠٣ مع بداية الحرب في العراق، هي انتشار واسع للمعلومات الصحيح منها و الخاطئ في الوقت نفسه. في عام ٢٠٠٣ لاحظنا انتشار المواقع الإلكترونية و المنظمات الغير حكومية التي اعلنت نفسها في الغرب ممثلة عن المتحف العراقي و الأثار العراقية. لسوء الحظ كثير من هؤلاء هم خبراء نصبوا أنفسهم من اجل الحصول على التبرعات أو للتأثير على الرأي العام بطريقة أو بأخرى. اليوم ومع انتشار استخدام الأنترنت هناك الكثير من المعلومات الخاطئة التي يتم نقلها، حتى أن بعض المواقع الإلكترونية المشكوك بمصداقيتها أستخدمت كمصدر أساسي للصحافة لنقل الأخبار. وفي بعض الأحيان يتم نشر معلومات حساسة مثلاً مواقع النصب و المباني التاريخية و أخبار عن زملاننا الذين يعملون في المناطق المهذدة ممل يعرضهم للخطر.

نحن اليوم مجتمعون هنا في تركيا، في منطقة تتأثر بشكل مباشر، جنباً الى جنب مع العراق و سوريا. معظم المشاركين هم من هذه المنطقة أذ تمت دعوتهم خصيصاً لسماع آراءهم و تجاربهم من داخل المناطق المتأثرة لقد جمعنا معاً مجموعة تشمل باحثين و مختصين في أثار ما قبل الإسلام و أثار و فنون الفترات الإسلامية و مختصي العمارة و الفنون الحديثة في المنطقة. في العديد من المؤتمرات و المناقشات حول تدمير التراث الثقافي في منطقة الشرق الأوسط، قليلاً ما نسمع اصوات و آراء الباحثين و المختصين المحليين مقارنة بأصوات زملاننا الذين هم أيضاً أصحاب مصلحة. هنا نحن نريد أن نغير هذه الحالة. أن مستقبل الماضي في العراق و سوريا هو موضوع مرتبط بالتراث الحضاري العالمي كما هم مُعرف من قبل اليونسكو و

المنظمات الدولية الأخرى، ولكنه أكثر إلحاحاً و تدميراً لشعوب هذه الأراضي. من ناحية أخرى فإن السكان المحليين هم مسؤولون أيضاً عن حماية تراثهم الثقافي عن طريق تعليم و توعية أطفالهم و شبابهم و القيام بذلك بدون الوقوع في فخ التعصب العرقي و الأقصائية و السياسة الطائفية.

وفي الختام أتمنى أن تسمحوا لي بأن أشير بأيجاز الى عملي في جامعة كولومبيا، الى مشروع يأمل (ولوبطريقة صغيرة على الأقل) بمحاربة عملية المحو الثقافي التي وصفتها للتو. كوسيلة لمواجهة كل هذا التدمير أنا بدأت مشروع حقلي جديد أقوم بإدارته بعنوان Mapping Mesopotamian Monuments او "توثيق نُصب بلاد وادي الرافدين". بمساعدة فريق العمل (البعض منهم موجودون معنا هنا: هيلين ملكو، سردار يالجن، توركان بيلافجي) ، قمنا بتوثيق النُصب و العمارة القائمة في كردستان العراق، في مدينة دهوك و أربيل و السليمانية، و كذلك في جنوب و شرق الأناضول. هدفنا هو مواصلة هذا العمل في بقية مناطق العراق الى الجنوب و تدريجياً في سوريا أيضاً. نحن لا نوثق التلوث الاثرية ولا نقوم بالمسح الاثري التقليدي، و مشروعنا غير محدد بفترات تاريخية او دينية بل نحن نوثق بشكل شامل. لقد وثقنا الى هذا اليوم العديد من نُصب بلاد وادي الرافدين و النقوش الصخرية بالإضافة الى عمارة مسيحية و إسلامية مبكرة مثل الكنائس و الأديرة و المساجد و الجسور و مباني العصر العثماني ومباني عائدة الى أوائل القرن العشرين. نحن نستخدم مجموعة من تقنيات التصوير منها اللقطات الثابتة *perspectival* و ٣٦٠° بانوراما و صور عالية الدقة. لكل موقع أو بناية نقوم بتوثيقها نحن أيضاً نوثق حالتها و نكتب بالتفصيل ملاحظتنا. لدينا حالياً أرشيف مكون من الآلاف الصور أخذناها لمواقع مختلفة جميعها محفوظة في موقع الكتروني مغلق حالياً. في الوقت الحالي نحن مترددون في فتح الموقع للعمامة، كما أننا تجنبنا اي حملات دعائية للمشروع خوفاً من خلق المزيد من الأهداف. هذه هي بعض صعوبات العمل على حماية مواقع التراث الحضاري. بعض من زملائنا هنا اليوم لازالوا مستمرين في العمل تحت ظروف شديدة الخطر بدون أي منفعة غير حماية ماتبقى من التراث الثقافي في خضم فوضى الحرب.

نحن نمقت و نرثي الأحداث المروعة التي نزلت على أراضينا و تاريخنا. مع ذلك في هذا المؤتمر، مستقبل الماضي، أهدافنا هي عملية الى حد ما. أهداف أولئك الذين نظموا المؤتمر ، بدعم كامل من مؤسسات غير حكومية في أوطاننا (جامعة كولومبيا، جامعة كوج، متحف الميتربوليتان للفنون)، هي لوضع خطط حقيقية للمضي قدماً. في الأشهر المقبلة نحن نأمل بخلق شبكة للتعاون و العمل عبر الشرق و الغرب. نحن لسنا الأباطرة و الملوك ولكن نحن علماء أثار مثل سلفنا العظيم نابو-زير-ايشير، ولا يمكننا مواجهة هذا التهديد لوجود تاريخنا المشترك الا عن طريق البحث و التوثيق و استقبال الطلاب و مشاركة باحثي الدكتوراه من العراق و سوريا في مؤسسات بلداننا، من خلال تبني مشاريع أثرية و مشاريع ترميم و حفاظ و بالعمل جنباً الى جنب مع زملائنا محلياً و من خلال وجود خطوط اتصال مفتوحة.